الزهـــاوى

فى أوائل أيامه وأواخرها

للسيد صلاح الدين عبد اللطيف الناهى

كنت فى السابعة أو الثامنة من عمرى يوم كان يستلفت نظرى شيخ هزيل نحيف ، مرسل الشعر على الأكتاف . يمتطى صهوة حمار حساوى أبيض ويمشى فى ركابه خادم لا يتغير ، وكانت سيما الشيخ ومطيته تدلان على أنه من أعيان بغداد فقد كان الحمار مطية لا تزرى براكبها قبل ان تديل دولة « الميكانيك » من دولة الحيوان

ومرت فترة من الزمن فهجر الشيخ حماره واتخذ له « عربانة » تقطع به عرض الشارع العام « شارع الرشيد » وهو يطل منها على الناس أو يراقب الطير حائما فوق مآذن بغداد الشامخة وقبابها الزرق ، أو يحرك شفتيه بشعر

وسألت ذات يوم : من يكون هذا الشيخ وماله يهدل خصائل شعره شأن أحبار اليهود ؟ فقيل لى انه فيلسوف . فلم أفهم ما يريدون ولكن كتمتها فى نفسى كمن اقتنع بالجواب

ثم قل اهتمامى به لكثرة ما اعتدت رؤيته بعد ذلك ، ولما كن أقدر ان اعتنائى به سيزداد يوما من الأيام . ولكن العمر تقدم بى قليلا فعرفت قدر الشيخ الفيلسوف ورضت نفسى على قراءة ما وقع فى يدى من آثاره فبدا لى من أمره ما كنت أجهل

وكان الناس يومئذ فريقان فريق يدعوله ويكبر شأنه ، وفريق ينكر أمره ويتبرم به ويرميه بالزندقة والالحاد . وكان هو محور هذا التطاحن العنيف بين هذين الفريقين . وانك لتلمس فى شعره هذا التطاحن اذا قرأته وتلمس تبرمه بجمود الجمهور وجهالة الجمهور ، ولكنه لم ييأس ولم يتمثل بقول القائل :

غزلت لهم غزلا رفيعاً فلم أجد لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

بل التزم دائما سبيل الجهر بآرائه والدعوة لها وانك لتعجب من بسالة هذا الشيخ المتهدم يوم كان يدعو الى التحرر والى التجدد ويجاهر برأيه فى المرأة :

يرفع الشعب فريقا ن أناث وذكور
وهل الطائر إلا بجناحيه يطير

* * *

ليس يأتى شعب جلائل مالم تتقدم أناثه والذكور

* * *

مزقى يا ابنة العراق الحجابا واسفرى فالحياة تبغى انقلابا

ويجاهر برأيه فى الدين :

تحيرت لا أدرى أمام الحقائق أأنى خلقت الله أم هو خالقى

فتضج الناس بالشكوى وتتبرم ويضيق به الأمر فيلزم داره أو يهجر بلده ويودع ليلاه لائذاً بمصر من غضب الناس نادباً ليالية فى بغداد ولكنه لم يلبث أن يجهر برأيه هنا وينشد القوم :

وسائلتى هل بعد أن يعبث البلى بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق
... ...
وهيهات لا ترجى حياة لميت إليه البلى فى قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد فهل يخلود الروح عندك موثق

فتنبرى الشيوخ من الغيظ ويثور الجمهور فاذا بالناس فريقان فريق له وفريق عليه حتى يضيق به الأمر فيعود إلى بلده وقد سكن روع الناس وعز عليهم أن يلجئوا الشيخ إلى الفرار فينالة المكروه فى سبيل ذلك وهو الشاعر الذى ينطق بآمالهم وآلامهم ويحفزهم إلى المجد ، غير مبال بعوده الذابل وجسمه الذاوى . حتى ألف الناس منه هذه البسالة والجرأة والتف حوله الشباب وهو يدفع بهم إلى الثورة ويلوح لهم بكل جديد فى الرأى وطريف فى الفكر تلويحاً يدفع به أحياناً إلى تحميل الشعر والأدب مالا طاقة لهما به فيزج العلم فى ساحة الشعر فيمهد بذلك السبيل لخصومه ومنكرى شاعريته فيحتجون عليه بمثل قوله :

ليست الشمس من الشر ق إلى الغرب تدور
إنما الأرض من الغر ب إلى الشرق تسير

وما كان بالعلم من حاجة إلا من ينظمه لنا شعرا إلا حاجة فى نفس الشيخ قضاها

ولقد كنا نقرأ له القصيدة فنلمس وجدان الشاعر الموهوب فى ألفاظ الشاعر المطبوع وأفكار الشاعر الفيلسوف فنطرب لها ، ثم نقرأ له القصيدة وقد أقحم فيها العلم اقحاما فنقف نتافح الخصوم عما فيها من نظريات وآراء تلهيهم بذلك عن زلة الشاعر ونخرج بهم من نقد هذه الزلة إلى تأييد الفكرة والبرهان ونعى عليهم جمودا فى الرأى وضيقا فى الصدر ولولا تجاوزهم حدود النقد إلى التحامل لما تجاوزنا حدود الدفاع إلى المكر .

وإذا كان فى اختيار الألفاظ الجزلة للمعانى السامية مايدل على

صفاء نفس الشاعر وطول باعه ودقة احساسه وتمييزه وقع الألفاظ وموسيقاها فقد كان شاعرنا فى اختيار الألفاظ والنواسى فرسى رهان . وهو الذى يشير إلى ذلك بقوله :

إذا هلكت نخطوا جنب النواسى قبرى
إنى أمت إليـــه وإن تأخر عصرى

على أنه يختلف بعد ذلك عن أبى نواس فى ميله من الدعابة والعبث إلى الفلسفة والحكمة ، فهو يغوص وراءها فى كل لجة ويأتى بها بكرا لم تقع العين على مثلها ، وهو بذلك يقتفى خطى المعرى . وبذلك يقول :

إنى تتلمذت فى بيتى عليك وان أبلت عظامك أزمان وأزمان

وهو يقتفى أيضا خطى الشاعر الخيمى[1] لا فى مجونه وإنما فى حكمته وشكه ويقينه ، وحسبك أنه عمد إلى رباعياته فترجمها إلى العربية نظما

واشتقت مرة أن أحادث الشيخ الفيلسوف وأتعرف به قبل أن تختطفه المنون فلما اجتمعت به أبصرت أمامى هيكلا من الأعصاب الثائرة يكسوها جلد مجعد ، ورأيته يرجحن فوق ساقين هزيلتين ما تنفكان تضطربان من الشلل

وقد أحاول أن أسعى فتمنعنى رجل رمتها يد الأقدار بالشلل

فهو ينتفض بين الآونة والآونة فيتجهم وجهه ثم تنبسط أساريره ويتمتم قائلا : أعصابى ! ثم ينصرف إلى محدثه فيما كان فيه ، وأذكر أننى ما كدت ابدأه بالتحيه حتى قال لى :

« يا بنى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه »

ثم لم يلبث أن قرأ لنا قصيدته « احساساتى » فاجتمعت حوله خلقة كبيرة من مريديه والمعجبين به وقفى ذلك بنكات بارعة وروى لنا أنه قرأ بين يدى جلالة الملك الراحل « ثورته فى الجحيم » وما زال بين نكتة وارتجاجة حتى انتصف النهار فودعنا وامتطى (عربانته) إلى داره . ومرت أيام فنعى الينا الشيخ ووقع ما كنا نخشاه .

مات الشيخ ولكن السبيل الذى كان يدعو إليه هانت صعابه وتطامنت وهاده

وبالرغم مما كانوا يتهمونه به من مروق فى الدين فقد قال :

عبدتك لا أدرى ولا أحددرى أسرك أم صدر الطبيعة أوسع
عبدت اسمك المحمود فى الليل والضحى
إذا الشمس تستخفى إذا الشمس تطلع

فأيقنت أن الكون بالله قائم وانك نور والحقيقة برقع

وقال :

أنا هـــذا فلا أبالى إذا ما أجمعت ثلة على تكفيرى
أهل عصرى لا يفقهون حديثى حبذا لو أتيت بعد عصور

وشيخنا فى تقلبه بين الشك واليقين إنما ينحو منحى بعض الفلاسفة الذين مروا فى تفكيرهم بأزمات فانكروا وآمنوا وهو فى كل مرحلة إنما سجل ما جاش بنفسه فجاء شعره صدى أطواره فى هذه الأزمات .

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

وبعد فان الصدق فى الرواية يحتم على أن أقول إن ما أثبته هنا من أبيات لم أرجع فيها إلى دواوين الشيخ فقد خلفتها فى بغداد ، وإنما هى مما علق بالذاكرة ، وما أكثر ما تخونى الذاكرة ، فأضع كلمة مكان كلمة متى استقام لها المعنى ولو كنت فى زمن الرواية والحديث لما أبحت لنفسى أن أروى حديثاً فلتغفر لى روح الفقيد ما أكون قد وقعت فيه وتغمد الله روحه برحمته

صلاح الدين عبد اللطيف الناهي

(١) عمر الخيمى الشاعر المعروف ويسميه بعضهم خطأ بالخيام وقد جاء :
إن كنت ترعين يا ربيع الصبا ذمى فاقرى السلام على العلامة الخيمى

ظهر كتاب

الحاكم بأمر الله

وأسرار الدعوة الفاطميـــة

بقلم محمد عبد الله عنان

مؤلف مصر الاسلامية ومواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام وابن خلدون وديوان التحقيق وغيرها

وهو أتم وأوفى بحث كتب عن الحاكم بأمر الله ، وشخصيته العجيبة ، وحياته المدهشة ، واختفائه المؤسى ؛ وعن نظم الخلافة الفاطمية ورسومها ومواكبها الباذخة ؛ وعن أسرار الدعوة الفاطمية ومجالس الحكمة الشهيرة

مجلد فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير مطبوع بدار النشر الحديث أجود طبع ومزين بالصور التاريخية

ثمنه ٢٠ قرشاً والبريد أربعة قروش لداخل القطر وستة للخارج

ويطلب من المؤلف بعنوانه بشارع المامي نمرة ٢١
ومن مجلة الرسالة ومكتبة النهضة بشارع المدابغ
وسائر المكاتب الاخرى